# توظيف الحيوان في شعر الإمام الشافعي

# The Employment of animals in the poetry of Imam Shafi'i

**أحمد علي موسى الزواهرة[1]**

**Ahmad ali mosa alzawahrah[1]**

DOI: 10.15849/ZJJHSS.221130.04

**الملخص**

يهدف هذا البحث إلى دراسة قضية بارزة ظهرت في ديوان الإمام الشافعي، وهي توظيف الحيوان في شعره؛ إذ كانت ظاهرة بارزةً تستحق الوقوف عليها ودراستها وتحليلها. ولعل كثرة الشواهد الشعرية التي وُظّف فيها الحيوان تدل على ذلك؛ فلقد وردت حيوانات كثيرة جدًا في شعره، وكان لكل منها رمزية خاصة، ومدلول ثابت، وقيمة فنية. كما تكررت مجموعة من الحيوانات دون غيرها، وظهر اعتماد الشافعي كثيرًا عليها في شعره. وقد قامت منهجية البحث على إيراد الأبيات الشعرية التي وردت فيها هذه الحيوانات، وتحليلها، وكشف دلالاتها، وبيان رمزيتها وقيمتها الفنية من خلال ربطها بفكر الشافعي وغايته الشعرية. ولتحقيق ذلك كان لا بد من الوقوف على بعض الظواهر الفنية والأساليب التي كان لها دور مهم في إيضاح المعنى وإبرازه وكشف مراد الشاعر منه. كالتضاد والكناية والاستعارة والتشبيه، وغيرها. وقد خلص البحث بجملة من النتائج التي تعد حلقة من حلقات دراسة شعر الشافعي وتحليله.

**الكلمات المفتاحية:** توظيف الحيوان، الشافعي، شاعر عباسي.

**Abstract**

This research aims to study an essential issue that appeared in the Diwan of Imam Al-Shafi'i, which is the employment of animals' names and attributes in his poetry. It was a prominent phenomenon, worthy of standing on it, studying it and analyzing it. Perhaps the large number of poetic proofs in which the animal was employed indicates this. So many animals were mentioned in his poetry, and each had a special symbolism, a fixed connotation, and an artistic value. A group of animals was also repeated and not others and Al-Shafi'i' depending on them appeared a lot in his poetic works. The research methodology was based on listing the poetic stanzas in which these animals appeared, analyzing them, revealing their connotations, and clarifying their symbolism and artistic value by linking them to the thought of Al-Shafi'i, and their poetic goals. To achieve this, it was necessary to identify some of the artistic phenomena and methods that had an important role in clarifying and highlighting the meaning and revealing the poet's intentions from it. Such as antithesis, metonymy, metaphor, simile, among others. The research concluded with a set of results, which is one of the parts of studying and analyzing Al-Shafi'i poetry.

**Keywords:** animal employment, Shafi'i, Abbasi poet.

[1]جامعة إربد الأهلية–الآداب والفنون–اللغة العربية وآدابها–الأدب والنقد

* للمراسلة: a.zawahreh@inu.edu.jo

تاريخ استلام البحث: 2022/05/11

تاريخ قبول البحث: 2022/07/07

[1]Irbid National University, Literature and arts, Arabic language and literature, Literature and criticism

* Corresponding author: a.zawahreh@inu.edu.jo

Received: 11/05/2022

Accepted: 07/07/2022

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والإبتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2022

## المقدمة

للحيوان أهمية كبيرة في الحياة، وهو شريك حقيقي للإنسان في الطبيعة، فتعايش الإنسان مع بعض أنواعه وأَلِفها واستعان بها في قضاء حوائجه، بل واعتمد عليها في أغلب مناحي حياته. في المقابل خاف من أنواع أخرى منها، وتجنبها، وأصبحت مصدر رعب له وعدم طمأنينة. وهذا كله بعد أن خَبرها وعرفها ودرس طباعها وصفاتها. وهذه الخبرة هي التي جعلت للحيوان حضورًا كبيرًا في حياة البشر.

كما نجد له حضورًا بارزًا في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، فكان اسمًا لسور كثيرة من سور القرآن الكريم، وورد ذكره في آيات القرآن الكريم، وكان لهذا الذكر قيمة كبيرة في المواعظ والحكم. كما ورد في كثير من الأحاديث النبوية الشريفة. وقد ورد ذكره صراحة أو رمزًا للدلالة على شيء ما أو قضية معينة. أو عِبْرة مقصودة. " فنجد أنّ الأحاديث النبوية الشريفة كشفت عن صورٍ من التفاعل السّلوكي مع الحيوانات، وذهبت إلى تأصيل التفكير في عالم الحيوان كي تدل على عظمة الخالق"[(1)].

وكما أن للحيوان حضورًا كبيرًا في حياة الإنسان، كان له حضور كبير في أدبه، فما الأدب إلا انعكاس لحياة الإنسان؛ لذلك ظهر الحيوان بأسمائه وصفاته ودلالاته ورمزيته في الأدب العربي؛ فقد ورد في المؤلفات الأدبية، حتى ظهرت مؤلفات عدة حملت اسمه وعنت دراسته كما في الحيوان للجاحظ (ت255هـ)، وحياة الحيوان الكبرى للدميري (ت808هـ)، وغيرها من المؤلفات الكثيرة. ولقد أصبحت هذه الكتب من أهم المصادر التي استند إليها علماء الغرب في بحوثهم في مجال الحيوان، فقد بقي كتاب الدميري مرجعًا لطلاب العلم في كافة أنحاء أوروبا، وقد ترجم إلى أكثر من لغة أوروبية[(2)]. وكذلك ورد الحيوان في الشعر العربي عبر العصور، بل واتكأ عليه كثير من الشعراء في بناء قصائدهم. وبرز في الجانب النثري كما في الأعمال الأدبية، وبعض الرسائل الأدبية. وفي الأمثال العربية المتنوعة.

وشعر الشافعي[(3)] (ت204هـ) جزء من هذا الأدب العربي؛ فهو كغيره من الشعراء استعان برمزية الحيوان، ووظّفه في كثير من أبياته، حتى أصبح هذا التوظيف ظاهرة بارزة في شعره، والقارئ لشعره يدرك هذه الظاهرة، وأبعادها ودلالاتها.

فالشافعي شاعر الحكمة المعروف، ويكاد شعره كله يدور في هذا الباب، وهي حكمة إسلامية خالصة، صدرت من شاعر عالم، وفقيه ورع، امتلك ثقافات عالية ومعرفة بالناس وأحوالهم؛ ففيه يقول البيهقي (ت 458هـ): "ما رأيت أحدًا أعلم بأيام الناس من الشافعي"[(4)]. ولعل هذا من أسباب قبول حِكَمِه عند الناس. فهو معروف بمكانته الدينية، والشرعية. كما هو معروف في شعره الذي يخدم الدين الإسلامي، فجاء متوافقًا معه في أوامره ونواهيه.

---

(1) العمايرة، حنان، ورغدة الزبون، توظيف الحيوان في شعر محمود درويش ديوان "سرير الغريبة" أنموذجًا تحليليًا، دراسات، العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد 44، العدد 1، 2017م، ص42.

(2) انظر، الدفاع، علي، إسهام العلماء العرب في عالم الحيوان، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط1/ 1986م، ص49.

(3) هو أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة. ولد 150هـ، وتوفي 204هـ. وانظر ترجمته في: ابن النديم (ت 389هـ)، الفهرست، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1978م، ص294. والبيهقي، الحافظ أبو بكر (ت 458هـ)، مناقب الإمام الشافعي، تحقيق، أحمد صقر، ط1، دار التراث، القاهرة، 1971م، جـ1، ص76. والحموي، ياقوت (ت 626هـ)، معجم الأدباء، ط3، دار الفكر، 1980م، جـ17، ص281.

(4) البيهقي، مناقب الإمام الشافعي، ص488.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والإبتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2022

والدراسات التي عنت شخصيته وعلمه وشعره كثيرة جدًا، ولكن تحاول هذه الدراسة أن تلقي الضوء على قضية مهمة وجدت في شعره، وهي توظيفه للحيوان.

وتأتي هذه الدراسة مكملة لمجموعة من دراسات كثيرة عنت شعر الشافعي، ومن أبرزها: دراسة منال عبيد: شعر الإمام الشافعي، دراسة فنية تحليلية، ودراسة فهد ابن غيام: الجملة الطلبية في شعر الشافعي (دراسة تركيبية دلالية)، ودراسة سعيد الفيومي: الصورة في شعر الإمام الشافعي، ودراسة بسام أبي بشير: الحكمة في شعر الإمام الشافعي، دراسة فنية. وإذ أفادت هذه الدراسة من الدراسات السابقة، فإنها تحاول أن تنفرد بتتبع ظاهرة مهمة بارزة في شعر الإمام الشافعي وهي كثرة ورود الحيوان في شعره، وكيفية توظيفيه، والغاية من ذلك.

فمن هنا تنطلق هذه الدراسة، محاولة الإجابة عن مجموعة من الأسئلة التي تتعلق برمزية الحيوان وقيمتها الفنية، وسبب كثرة استخدامها ودلالاتها، وسبب عقد الشاعر لكثير من المقارنات بين بعض الحيوانات، كمقارنته بين الأسد والكلب مثلًا. وغيرها من أسئلة كثيرة حاولت الدراسة تغطيتها وكشف أسرارها. ويقوم منهج الدراسة على تحليل النصوص الشعرية، والوقوف على جمالياتها، وإظهار القيمة الفنية لها. معتمدًا المنهج الوصفي التحليلي؛ إذ يحاول البحث الانطلاق من ظاهرة معينة ورصدها، ثم تحليلها وكشف أسبابها والوقوف على أبعادها وجمالياتها.

## توظيف الحيوانات ودلالاتها في شعر الإمام الشافعي

لقد تكررت حيوانات كثيرة في شعر الإمام الشافعي؛ فنجد كثرة ورود الأسد بأسمائه وصفاته، وكذلك الكلب والذئب والأفعى. وغيرها من الحيوانات المتنوعة، التي حاولت الدراسة الوقوف عند دلالاتها، وقيمتها في أداء الفكرة المنشودة. وقد بدأت الدراسة بتتبع هذه الحيوانات حسب ورودها.

ومن أكثر الحيوانات ورودًا في شعر الشافعي هو الأسد. فالشافعي كغيره من الشعراء استعان برمزية الأسد بسبب الصفات التي يتمتع بها هذا الحيوان، والتي يتغلب فيها على كثير من الحيوانات، "فالأسد من أشرف الحيوان المتوحش، إذ منزلته منزلة الملك المهاب لقوته وشجاعته، وقساوته، وشهامته، وجهامته، وشراسة خلقه، ولذلك يُضرب به المثل في القوة والنجدة، والبسالة، وشدة الإقدام، والجرأة، والصولة"[1]. ويكفي من نبله أنه اشتق لحمزة بن عبد المطلب –رضي الله عنه– من اسمه[2]. وذلك لما عرف عن سيدنا حمزة بن عبد المطلب –رضي الله عنه– من الشجاعة والإقدام؛ فأضحى الأسد لقبًا له، ولكل من يتمتع بتلك الصفات. "وكانت صفتا الشجاعة والبأس من أهم الصفات العربية، يتغنى بها الجميع، ولا تكاد تخلو منها قصيدة. ولعل هذا ما جعل الشعر العربي شعر الحماسة بامتياز"[3]. ولذلك فقد وجد الشعراء في الأسد خير مثال على القوة والبأس والشجاعة، واستحضروه بوصفه رمزًا لذلك، وأحسنوا من توظيفه في أشعارهم، ووجدوا فيه القدرة الكاملة على إيراد المعنى وإيصال الفكرة، لذلك حضرت رمزيته في الشعر العربي.

---

[1] الدميري، كمال الدين محمد بن موسى (ت 808هـ)، حياة الحيوان الكبرى، تحقيق إبراهيم صالح، ط1، دار البشاير، جـ1، ص38.

[2] انظر: الجاحظ، عمرو بن بحر (ت 255هـ)، الحيوان، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، ط2، مطبعة البابي الحلبي بمصر، 1965م، جـ1، ص228.

[3] سقال، ديزيريه، العرب في العصر الجاهلي، ط1، دار الصداقة العربية، بيروت، 1995م، ص90.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والإبتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2022

ونجده يتكرر أكثر من غيره في شعر الشافعي، وكثيرًا ما يتّكئ على رمزيته في إيصال مراده، ومن ذلك يقول:

إذا رُمتَ المَكارِمَ مِن كَريمٍ فَيَمِّم مَن بَنى لِلَّهِ بَيتــا
فَذاكَ اللَيثُ مَن يَحمي حِماهُ وَيُكرِمُ ضَيفَهُ حَيّاً وَمَيتا[1]

تدل هذه الأبيات على الكرم، بل والحث عليه، وهذا ظاهر من خلال تكرار الألفاظ التي تدل على ذلك. وإن بناء بيوت الله –عز وجل– أعلى درجات الكرم. ولقد وظّف الشافعي الأسد هنا بوصفه رمزًا للقوة، وذلك في تشبيهه لمن يبني بيوت الله بالأسد، فما هو الرابط بين الكرم والقوة التي يُعرف بها الأسد؟

إن الرابط بين الكرم ورمزية الأسد هو القوة التي ينبع منها الكرم، فهو يحتاج إلى قوة وعزيمة كبيرة. وكذلك فإن المحافظة على بيوت الله وحمايتها هو عمل يحتاج إلى قوة أيضًا، وخير ما يدل على هذه القوة هي رمزية الأسد. فإنّ من يبني هذه البيوت ويحافظ عليها ويحميها يصبح كالأسد الذي يحمي عرينه بقوته، وقد يدل هذا على قوة المسلم وثباته.

وفي ذات المعنى (القوة) يقول الشافعي:

فلَولا الشِعرُ بِالعُلَماءِ يــزُري لَكُنتُ اليَومَ أَشعَرَ مِن لَبيـدِ
وَأَشجَعَ في الوَغي مِن كُلِّ لَيثٍ وَآلِ مُــهَلَّــبٍ وَأَبي يَــزيـدِ
وَلَولا خَشيَّةُ الرَحــمــنِ رَبّــي حَشَرتُ الناسَ كُلَّهُمُ عَبيدي[2]

بنى الشافعي أبياته السابقة على فكرة القوة والتفوق، وهذا ظاهر من استخدامه لصيغ التفضيل (أَشعَرَ) و(وَأَشجَعَ). فلولا أن الشعر يزري بالعلماء –على حد قوله– لتفوق على الشاعر المعروف لبيد بن ربيعة. ولتفوق على الأسد في الشجاعة، وعبّر عن هذا التفوق من خلال رمزية الأسد (الليث)، وأنه يملك من العزيمة والبأس والقوة ما تجعله يفوق هذا الأسد في الوغى، والشافعي يستحضر هذه الرمزية لمعرفته ما استقر في أذهان الناس من مثل أعلى لقوة الأسد.

وعليه تصبح عزيمة الشافعي عظيمة، وقوّته بالغة عندما تقارن بقوة الأسد، بل فاقتها هنا. لكنها ليست قوة مطلقة، بل مقيدة ومضبوطة بضوابط الدين الإسلامي، والشافعي في ذلك ينطلق من قوة دينية إسلامية منضبطة كما يبدو في البيت الثالث.

ويقول في ذلك أيضا:

قالوا: سَكَتَّ وَقَد خُوصِمتَ، قُلتُ لَهُم: إِنَّ الجَــوابَ لِــبابِ الشَرِّ مِفتــاحُ
وَالصّمتُ عَن جاهِلٍ أَو أَحمَقٍ شَرَفٌ وَفيـهِ أَيضًـا لِصَونِ العِرضِ إِصـلاحُ
أَما تَرى الأُسدَ تُخشى وَهِيَ صامِتَةٌ؟! وَالكَلـبُ يُخسى لَعَمري وَهوَ نَبّاحُ[3]

إنّ القوة التي تنطوي عليها الأبيات هي القدرة على الصمت، رغم المحاولات التي يتعرض إليها الشاعر من الخصوم. فالتزامه الصمت ليس ضعفًا أو عدم قدرة على الرد، ولكن لمعرفته أنّ الردّ على هذه الفئة المعينة

[1] الشافعي، ديوان الإمام الشافعي، اعتنى به عبد الرحمن المصطاوي، ط3، دار المعرفة، بيروت، لبنان، 2005م، ص33.
[2] المصدر السابق، ص49–50.
[3] الشافعي، ديوان الإمام الشافعي، ص42.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والإبتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2022

من الناس هو مفتاح للشر. فصمته ليس مطلقًا، ولكن ترفعًا عن بعض الجهلة من الناس، ولعلهم هنا بعض الحاقدين عليه، وفي صمته حفظ لقدره ومكانته. وجاء توظيف الأسد هنا ليشير إلى تلك القوة، وذلك بالمقارنة بين رمزية الأسد ورمزية الكلب، فهي مقارنة محسومة. فتتشكل فكرة المقارنة وتتأكد من خلال إقامة علاقة ضدية بين قيمة الأسد وما هو معروف عنه، وقيمه الكلب في مقابله، فتتأكد الفكرة لدى المتلقي من خلال عقد تلك المقارنة في نفسه. "فقد ركّز الشافعي على استخدام المقابلة عند طرحه لقضايا فكرية تستوجب من العقل أن يفهم مبتغاها وقصدها"[(1)]. وكأنه يطلب من القارئ أن يقيم مقابلة في ذهنه بين أمرين، ويترك له الخيار في الوصول إلى النتيجة التي يريدها.

لذلك فاستخدام التضاد بين الأسد والكلب، وبين خشية الأسد وخِسَّة الكلب، هو الذي زاد النص جمالًا وشعرية. وهذا من خلال ما يصنعه التضاد في ذهن المتلقي، فمن خلال التضاد تتشكل الصورة المقصودة والمراد إيصالها للمتلقي، وهي الفارق الكبير بين رمزية هذين الحيوانين، وبإقامة العلاقة الضدية بينهما يتشكل المعنى، "فبضدها تتميز الأشياء"[(2)]، والشيء يُعرف بنقيضه. ولذلك فقد أشرك الشافعي المتلقي في إنتاج فكرة النص، فأصبح المتلقي "مساهمًا في إبداع النص من خلال آليات التأويل والتذوق"[(3)]. فقد يترك الشاعر فراغًا يساهم القارئ في سدّه ومحاولة تأويله[(4)]، وهذه المساهمة تشكلت هنا من خلال العلاقة التي نشأت بين المتضادات من جهة، ومن استخدام الشافعي لبعض الأساليب اللغوية في الأبيات، ومنها أسلوب الاستفهام من جهة ثانية؛ فالشاعر بذلك ترك مجالًا للمتلقي في إضافة نص ضمني في ذهنه نتج عن النص الأول، وقد تشكل من خلال الإجابة عن السؤال الذي طُرح في البيت الأخير؛ إذ لا يريد الشافعي من المتلقي إجابة بقدر ما يريد منه إعمال فكره وعقله في الوصول إلى الإجابة. فيخاطب المتلقي بقوله له: أما ترى...؟

وفي المضمون ذاته يقول الشافعي:

قُلْ بِما شِئْتَ في مَسَبّةِ عِرْضِي        فسُكُوتي عَن اللئيمِ جَـــوابْ
مـا أنـا عَادمُ الجوابِ، ولـكـنْ        ما من الأُسُدِ أنْ تجيبَ الكِلابْ[(5)]

يرمز الشافعي هنا بالأسد إلى نفسه، بينما يرمز إلى الناس الذين يتعرضون له بالكلاب، وشتان بين رمزية الاثنين (الأسد والكلب)، فإجابته لأولئك الناس تقليل من شأنه، وهو شبيه بترفع الأسود عن الكلاب لأنها تعلم قدرها، وأن الكلاب لا تدانيها في شيء. وهذا كلّه من أجل التقليل من قيمة بعض الناس وتشبههم بالكلاب. ولعل حسن توظيف الحيوان في الأبيات كان خير معين له في ذلك.

---

(1) عبيد، منال محمد، شعر الإمام الشافعي، دراسة فنية تحليلية، رسالة ماجستير، جامعة الأقصى غزة، 2017م، ص201.

(2) كوهن، جان، اللغة العليا، النظرية الشعرية، ترجمة أحمد درويش، ط2، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 1999م، ص46.

(3) إبراهيم، نوال مصطفى، المتوقع واللّامتوقع في شعر المتنبي، مقاربة نصية في ضوء نظرية التلقي والتأويل، ط1، دار جرير، عمّان، الأردن، 2008م، ص17.

(4) انظر: ربابعة، موسى، جماليات الأسلوب والتلقي، دار جرير للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، 2008م، ص114.

(5) الشافعي، الديوان، ص32.

وانظر لقول الشافعي في الحثّ على ضرورة الكدّ والتّعب من أجل تحقيق الأهداف؛ حيث يقول:

ما في المقامِ لِذي عَقلٍ وَذي أَدَبِ مِن راحَةٍ فَدَعِ الأَوطانَ وَاغتَرِبِ
سافِر تَجِد عِوَضًا عَمَّن تُفارِقُهُ وَانصَب فَإِنَّ لَذيذَ العَيشِ في النَّصَبِ
إِنّي رَأَيتُ وُقوفَ الماءِ يُفسِدُهُ إِن ساحَ طابَ وَإِن لَم يَجرِ لَم يَطِبِ
وَالأُسْدُ لَولا فِراقُ الأَرضِ ما افتَرَسَت وَالسَّهمُ لَولا فِراقُ القَوسِ لَم يُصِبِ[1]

يستخدم الشافعي في هذه الأبيات أسلوب المنطق في الإقناع، وذلك من خلال طرح أمثلة واقعية منطقية، تستقر في ذهن المتلقي وتؤثر فيه، ولا يعد بإمكانه إلا التسليم بمراد هذه الأمثلة، فلقد ضرب مثالًا في ضرورة السفر والتنقل والاغتراب في طلب الرزق أو العلم، أو غيره، بل والحث عليه، من خلال استخدام أفعال الأمر: دَع، اغتَرِبِ سافِر، انصَب، "والتي خرجت هنا إلى معنى النصح والإرشاد والتسليم"[2]. وكذلك من خلال تشبيه ذلك بحياة الأسد، فالأسد رغم قوته وسطوته لن يحصل على شيء يسد جوعه إذا بقي في عرينه، وإن لم يكدّ ويتعب في الحصول على فريسة. وكأن الشافعي يوجه خطابًا للإنسان مفاده أن هذا الأسد وهو من أقوى الحيوانات وأشدها، لم يحصل على شيء وهو مرتاح في مكانه، فما بالك بمن هو أضعف منه وأقل قوة.

وينطلق الشافعي من منطلق إسلامي في ضرورة السعي وراء الرزق، وهذا ما نجده في النصوص الشرعية، وما نتعلمه من التعاليم الدينية الثابتة؛ فالنصوص التي تدل على ذلك كثيرة، ومنها قوله تعالى: "هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ "[3] .

ونجد استحضارًا آخر لرمزية الأسد في شعر الشافعي، ومنه قوله:

تَموتُ الأُسدُ في الغاباتِ جوعًا وَلَحمُ الضَأنِ تَأكُلُهُ الكِلابُ
وَعَبــدٌ قَـد يَنــامُ عَلى حَريرٍ وَذو نَسَبٍ مَفارِشُهُ تُرابُ![4]

بنيت أبيات الشافعي السابقة على مفارقة عجيبة بين من يملك القوة، ومن لا يملكها، وبين القوي والضعيف، وهي مقارنات انتهت بنتائج غير عادية، فالأسد رمز القوة يموت جوعًا، بينما الكلب الذي لا يجاريه أو يدانيه في القوة يتنعّم بأكل لحم الضّأن. فمما هو معلوم "أنّ الكلب يتعرض، كذلك، للهلاك والفناء من الأسد المفترس"[5]، وهذا يعود لتفاوت القوة بينهما. إذ لا يخطر في البال أنّ الأسد رمز القوة يموت جوعًا في الوقت الذي يتنعم الكلب بأكل لحم الضأن. وجاء بتوظف رمزية الأسد هنا لكي يبين كيفية توزيع الأرزاق، وأن مردّها ليس للقوة فحسب؛ وإنما هي بتقدير من الله –عز وجل–.

---

[1] الشافعي، الديوان، ص27–28. وانصب: فعل أمر والمعنى جدّ في الأمر واجتهد فيه.

[2] ابن غيام، فهد حسن، الجملة الطلبية في شعر الشافعي (دراسة تركيبية دلالية)، رسالة ماجستير، جامعة الشرق الأوسط، الأردن، 2014م، ص32.

[3] سورة الملك: 15.

[4] الشافعي، الديوان، ص24.

[5] فريحات، مريم، صورة الأسد في شعر أبي زبيد الطائي، مجلة قراءات للبحوث والدراسات الأدبية والنقدية واللغوية، عدد 3، 2013م، ص134.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والإبتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2022

ومن ذلك يقول الشافعي:

أَرَى حُمُرًا تَرعَى وَتُعلَفُ ما تَهوى وَأُسدًا جِياعًا تَظمَأُ الدَّهرَ، لا تُروى
وَأَشرافَ قَومٍ لا يَنالونَ قوتَهُم وَقَومًا لِئامًا تَأكُلُ المَنَّ وَالسَلوى
قَضاءٌ لِدَيّانِ الخَلائِقِ سابِقٌ وَلَيسَ عَلى مُرِّ القَضا أَحَدٌ يَقوى
فَمَن عَرَفَ الدَهرَ الخَؤونَ وَصَرفَهُ تَصَبَّرَ لِلبَلوى وَلَم يُظهِرِ الشَكوى[1]

فهذه الأبيات بنفس الفكرة السابقة، وأيضا طرح فيها الشافعي فكرته من خلال توظيف رمزية بعض الحيوانات متفاوتة القوى، ويريد أن يبين أن تفاوت هذه الحيوانات من حيث القوة لا يكفي لتحقيق أفضل حياة، بل لا يعطي لحيوان رزقًا أكبر من الرزق المكتوب له، لأن هذا بيد الله تعالى وتحت تصرفه، وهذا ما يظهره الشافعي في البيت الثالث. وإنّ ما ينطبق على الحيوان هو ذاته ينطبق على الإنسان في آلية توزيع الرزق. لذلك فالخطاب في الأبيات ينتقل من عالم الحيوان غير العاقل، إلى الإنسان العاقل. ولعل استخدام الشافعي للفعل (أرى) يعطي الفكرة تأكيدًا أكبر، فهي فكرة صادرة عن خبرة ورؤية حقيقية ارتبطت بما شاهده في حياته، وهذا يحمل اقناعًا أكبر للمتلقي.

ويقول في الفكرة نفسها لكن بتوظيف حيوانات أخرى:

أَكَلَ العُقابُ بِقُوَّةٍ جِيَفَ الفَلا وَجَنى الذُبابُ الشُهدَ وَهُوَ ضَعيفُ[2]

فهذا بيت آخر يؤكد تلك الأبيات لكن بتوظيف حيوانات أخرى، وكذلك عقد مقارنات بينها في القوة. فما الذباب مقارنة بالعُقاب؟ فالعُقاب رغم قوته كان طعامه الجيف، بينما تمتّع الذباب، ذلك الحيوان الضعيف الذي يضرب بضعفه وقلة حيلته المثل، كان العسل طعامه.

إن الشواهد السابقة لم نرَ فيها توظيفًا للأسد فقط، بل وظّف فيها الشافعي مجموعة كبيرة من الحيوانات، وكان لهذا التوظيف الفائدة الكبيرة التي تؤكد قضية كيفية توزيع الأرزاق، والحكمة الربّانية في ذلك. ولعل الشافعي في أبياته السابقة، شكّل صدمة للمتلقي، وذلك من خلال كسر أفق توقّعه؛ وهذا بسبب حديثه عن قوة الحيوانات، وأنها لم تسعفها في الحصول على رزقها، فلا أحد يتوقع أن الأسد يموت جوعًا بينما الكلب يتنعم في أكله لحم الضأن، وكذلك يجوع الأسد بينما الحمار يأكل ما يهوى ويشتهي، وكذلك يأكل العقاب الكاسر صاحب القوة الهائلة الجيف، بنما يتنعّم الذباب بالعسل. ولكن ما يعيد للمتلقي استقراره وقناعته بتلك الأمثلة التي طرحها الشافعي، هو إسناد تلك الأمور إلى الله –عز وجل–، وربطها بقدرته تعالى وحكمته في توزيع الأرزاق، وهذه هي الفكرة التي يريد الشاعر إيصالها.

ومن الحيوانات التي تكررت في شعر الشافعي وأحسن توظيفها هو حيوان الكلب. فهو من الحيوانات التي وردت بشكل كبير جدًا عند الشعراء، واتخذت أوصافًا عدة، وقد يعود ذلك إلى أهمية هذا الحيوان في حياة الناس قديمًا، "ومما يدل على قدْر الكلب كثرة ما يجري على ألسنة الناس من مدحه بالخير والشّر، وبالحمد والذم، حتى ذكر في القرآن الكريم مرة بالحمد ومرة بالذم. وبمثل ذلك ذكر في الحديث وكذلك في الأشعار والأمثال"[3].

---

[1] الشافعي، الديوان، ص20.

[2] المصدر السابق، ص82.

[3] الجاحظ، الحيوان، ج2، ص86.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والإبتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2022

وكذلك ورد في شعر الشافعي مدحًا وذمًا، وعلى أكثر من صورة، واستعان به للدلالة على أكثر من رمزية. فيقول:

وَاقْلِلْ عِتَابًا فمَا فِيهِ مَنْ يُعَاتَبُ حِينَ يَحِقُّ العِتَابْ
مَضَى الناسُ طُرًّا وبادُوا سوى أراذل عنهم تَجِلُّ الكلابْ[1]

فالبيت السابق فيه انتقاص من بعض البشر، وأن الكلاب أجلّ منهم وأرفع. فخطاب الشافعي موجه إلى بعض صنوف البشر، هذا الصّنف يقل قدرًا عن الكلاب، فمجرد وصف الإنسان ومساواته بالكلاب هو انتقاص له، فكيف إذا كان دونه أو أقل منه شأنًا.

وكذلك يوظف الشافعي الكلب في حِكَمِه إذ يقول:

اَعرِضْ عَنِ الجاهِلِ السَفيهِ فَكُلُّ ما قالَ فَهُوَ فيهِ
ما ضَرَّ بَحرَ الفُراتُ يَومًا أن خاضَ بَعضُ الكِلابِ فيهِ[2]

نجد هنا أنّ الشافعي قد حط من قدر الكلب حينما وظّفه ليرد على بعض السفهاء والجهلة، وأنه ليس لهم أيّ تأثير عليه. ويبدو الشاعر متأثرًا بقوله تعالى: "خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ"[3]. وكذلك يلتقي مع المثل العربي القائل: "لا يضر السحاب نبح الكلاب"[4]، فكما أن نبح الكلاب للسحاب لا يقدم ولا يؤخر شيئًا، فكذلك خوض الكلاب لنهر الفرات لا يقلل من قيمة هذا النهر. وهذا كلّه للتقليل من قيمة الإنسان الجاهل السّفيه، فهو شبيه بالكلب الذي خاض نهر الفرات.

ويستخدم الشافعي رمزية الكلاب للدلالة على الذين يتقاتلون على الدنيا، وأنهم مجرد كلاب تتقاتل على جيفة؛ إذ يقول:

وَمَن يَذُقِ الدُنيا فَإِنّي طَعِمتُها وَسيقَ إِلَينا عَذبُها وَعَذابُها
فَلَم أَرَها إِلّا غُرورًا وَباطِلًا كَما لاحَ في ظَهرِ الفَلاةِ سَرابُها
وَماهِيَ إِلّا جِيفَةٌ مُستَحيلَةٌ عَلَيها كِلابٌ هَمّهُنَّ اجتِذابُها
فَإِن تَجتَنِبها كُنتَ سِلمًا لِأَهلِها وَإِن تَجتَذِبها نازَعَتكَ كِلابُها
فَطوبى لِنَفسٍ أُولِعَت قَعرَ دارِها مُغَلِّقَةَ الأَبوابِ، مُرخًى حِجابُها[5]

استطاع الشافعي من خلال هذه الأبيات تقديم صورة منفرة للدنيا، وذلك حينما وصفها بالجيفة وحولها كلاب تتقاتل عليها. واستخدم لذلك أسلوب الحصر (وَماهِيَ إِلّا جِيفَةٌ)، فقد حصر المتنافسين على الدنيا بالكلاب. فمما زاد المعنى إيضاحًا وجمالًا استخدام رمزية الكلاب، فالذين يتنافسون على الدنيا ليسوا بشرًا وإنما كلابًا. لذلك فإنّ البشر صنفان في الدنيا، صنف ينظر إليها بعين الزوال، وهي صاغرة في عينه، وأنها مجرد محطة للدار الآخرة، فيرضى منها بالشيء القليل. وصنف آخر كل همه أن ينال منها المكاسب الكثيرة، فهي عظيمة في نفسه.

---

[1] الشافعي، الديوان، ص31، وطرًا: جميعًا.

[2] المصدر السابق، ص129.

[3] سورة الأعراف: 199.

[4] الميداني، أبو الفضل أحمد بن يحيى (ت 518هـ)، مجمع الأمثال، حققه وفصله وضبط غرائبه وعلّق حواشيه، محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السنة المحمدية، 1955م، جـ2، ص2015.

[5] الشافعي، الديوان، ص27.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والإبتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2022

ويظهران هذان الصنفان في هذه الأبيات، فالأبيات فرّقت بينهما بأسلوب فني جميل تكفل به أسلوب التضاد، وهذا ظاهر من استخدام الفعلين المضارعين (تَجتَنِبها، تَجتَذِبها) المقرونين بأسلوب الشرط.

فإن كنت من الصنف الأول واجتنبت الدنيا كنت من الناجين، أمّا إذا كنت من الصنف الثاني واجتذبتها وقعت في صراع مع كلابها، وهم الذين يتقاتلون عليها. فالأبيات تعبر عن موقف الشافعي تجاه الدنيا، ومدى صِغَرِها في نفسه، وهذا ما جعله يختار رمزية الكلاب للدلالة على ذلك. وهذا الموقف تشكّل من خلال خبرة الشافعي في الحياة ومعرفتها على حقيقتها، وهذا ظاهر في قوله: "وَمَن يَذُقِ الدُنيـا فَإِنّي طَعِمتُها".

ومن الحيوانات التي تكرر ذكرها في شعر الشافعي نجد حيوان الذئب، بما يحمل من رمزيات ودلالات استقرت في أذهان الناس حول هذا الحيوان. ويشهد ديوان العرب الأدبي أن الذئب كان يستفز شاعرية الشعراء، وأنهم جعلوه موضوعًا لقصائدهم، وقاموا بوصفه بصورة بديعة، كما جعلوه هدفًا لإسقاطات فنية ونفسية بصورة صريحة عن وعي، أو غير وعي[1]، لذلك نجد للذئب حضورًا كبيرًا في الشعر العربي، وكثيرًا ما كان الشعراء يتكئون عليه في رسم صورتهم الشعرية، وتأدية أغراضهم، وإيصال مرادهم، ولذلك أصبحت رمزية الذئب رمزية حاضرة عند كثير من الشعراء.

والشافعي من هؤلاء الشعراء الذين وظّفوا رمزيته توظيفا ناجحًا، ومن ذلك قوله:

وَلَيسَ الذِئبُ يَأكُلُ لَحمَ ذِئبٍ  وَيَأكُلُ بَعضُنا بَعضًا عَيانا[2]

جاء توظيف الذئب هنا لبيان موقف الشافعي من أمر خطير وهو الغيبة، وهو أمر محرّم في الشرع، وشبه المغتاب بمن يأكل لحم أخيه الإنسان، وهذا التشبيه مأخوذ من قوله تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ"[3].فالمغتاب هو آكلٌ للحم أخيه الميت، وهذا فعل حتى الذئاب المتوحشة المعروفة بغدرها وافتراسها تترفع عنه، فلا يمكن أن يأكل الذئب لحم ذئب آخر. فقد نفى فعل الأكل عن الذئاب في حين أثبته للبشر من خلال استخدامه أسلوب الكناية. وقد قصد الشافعي هنا إبراز صورة الذئب، والتأكيد على رمزيته من خلال تكرار اسم الذئب مرتين في صدر البيت، إذ كان بإمكانه الاستعانة عن تكرار اسمه باستخدام ضمير يدل عليه، لكنه قصد هذا الصنيع للتأكيد أكثر على قبح فعل الغيبة وأن المغتاب شبيه بالذئب في شيء من صفاته.

ومن منطلق إسلامي آخر، يوظف الشافعي رمزية الذئب في التحذير من المنافقين، فيقول:

وَدَعِ الَّذينَ إِذا أَتَوكَ تَنَسَّكوا  وَإِذا خَلَوا فَهُمُ ذِئابُ حِقافِ[4]

فالمنافق كالذئب الذي يظهر الود والمحبة للآخر، ولكن في نفسه ما فيها من حقد وغلّ، وكذلك هو كالذئب المتربص بالفريسة والذي يترقب الوقت المناسب للانقضاض عليها، وإن بدا مسالمًا في بداية الأمر.

---

[1] انظر، عوض، جازية، الحيوان في شعر كعب بن زهير؛ دراسة فنية موضوعية، رسالة ماجستير، جامعة القدس، فلسطين، 2012م، ص88.

[2] الشافعي، الديوان، ص112.

[3] سورة الحجرات: 12.

[4] الشافعي، الديوان، ص82، وذئاب حقاف: أي ذئاب الرمل.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والإبتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2022

فنجد الأسد والكلب والذئب من أكثر الحيوانات حضورًا في شعر الشافعي. كما وردت حيوانات أخرى تدل عليهن ولكن بشكل مجمل، وهي السّباع؛ فالسباع اسم عام جامع لكثير من الحيوانات ذوات الناب، والتي تعدو على الناس[1].

فيقول في ذلك:

لَيتَ السّباعَ لَنا كانَت مُــجاوِرَة وَلَيتَنا لا نَرى مِمّا نَرى أَحَدا
إِنَّ السباعَ لَتَهدي في مرابِضِــها والناسُ لَيسَ بِهادٍ شَرُّهُم أَبَــدا
فَاهرُب بِنَفسِكَ وَاستَأنِس بِوِحدَتِها تَبقى سَعيدًا إِذا ما كُنتَ مُنفَرِدا[2]

يقارن الشافعي في هذه الأبيات بين بعض البشر والسّباع، مفضلًا السّباع على البشر، وقد يكون ذلك لتجربة خاصة لبعض البشر، أو بخصوص فئة معينة منهم، ممن عملوا أعمالًا جعلت الشافعي يفضل السّباع عليهم. وعليه أصبحت مجاورة السّباع أكثر راحة من مجاورة البشر. فالأبيات السابقة عبارة عن مقارنة بين البشر والسّباع، انتهت هذه المقارنة بنتيجة تفضيل السّباع على بعض البشر، وهذا التفضيل جاء بعد معرفته لصنوف من البشر. وفيه إعلاء لشأن السّباع مقابل البشر. ولعل خير ما استعان به الشافعي للدلالة على ذلك هو اختيار رمزية السّباع.

ونجد حيوانات أخرى كثيرة وردت في شعره، وكان لكل منها رمزيته الخاصة ودوره في إثراء النص الشعري وأداء الفكرة المنشودة. فنجده يوظف رمزية الحيوان في حثّه على طلب العلم وضرورة التعلم، فيقول:

تعلّم ما استطَعْتَ تَكُن أَمِيرا ولا تَكُ جَاهِلًا تبقى أَسِيرا
تعلّم كلَّ يومٍ حَرْفَ عِــلمٍ ترى الجُهّال كُلهم حَمِيْرا[3]

فيحث على ضرورة طلب العلم، ويأمر به من خلال تكرار فعل الأمر (تعلّم) في البيتين السابقين، فإن التكرار –بشكل عام– يدل على الاهتمام باللفظ والعناية به، ويميزه عن غيره من الألفاظ[4]. ولأهمية العلم وفضله كرّر الشافعي أفعال الأمر في مفتتح أبياته. وكذلك مما يزيد المعنى قيمة هو تشبيه الجهّال بالحمير، وهي دلالة تثير المتلقي، وذلك أن الحمار مضرب مثل في الجهل.

إن الشافعي الذي يحث على العلم ويأمر به، يرى أنه لا ينبغي أن يُعطى للجاهل الذي يستخِفُّ به ولا يقدره، ولا يعلم قيمته، أو رافض له، فلا يريد أن يتعلم، فيقول:

سأكتمُ عِلمي عن ذَوي الجَهْلِ طاقَتي ولا أَنثرُ الدُرّ النفيسَ على الغَنَمْ
ومَــــنْ مَنَحَ الجهّال عِلْمًا أضاعَهُ ومن مَنَعَ المُستوجِبين فقد ظَلَمْ[5]

بلا شك أن الشافعي يقصد فئة معينة من الناس، فهو يدرك عظم كتم العلم، ومنعه عن الناس، لكنه هنا يقصد الجهال الذين يترفعون عن العلم، ولذلك وصفهم بالغنم، فكانت رمزية الغنم هنا للدلالة على الجهل وعدم

---

[1] انظر: ابن منظور، جمال الدين الأنصاري (ت 711هـ)، لسان العرب، ط4، دار صادر، بيروت، 2005م، مادة سبع.
[2] الشافعي، الديوان، ص44.
[3] المصدر السابق، ص55.
[4] انظر: الهليل، عبد الرحمن، التكرار في شعر الخنساء، دراسة فنية، ط1، دار المؤيد، الرياض، السعودية، 1999م، ص31.
[5] الشافعي، الديوان، ص110.

المعرفة، فالذي يمنح علمه لجاهل كالذي يزيّن الأغنام بالدرر النفيسة إذ إن الأغنام لا تقدر هذه الدرر ولا تدرك قيمتها بسبب طبعها البهائمي. كما أنّ هذه الدرر النفيسة لا تزيد من قيمة الأغنام ولا تعطيها قيمة أكبر من قيمتها.

ويوظف الحيوان في إظهار فلسفته الذاتية تجاه قضية الشيب والشباب، وهي قضية أو ثنائية قديمة جديدة؛ فلطالما كان الشيب نذيرًا بقرب الأجل والتقدم بالسن والضعف، ويستغل الشافعي هذا الملمح في بث حِكمِهِ ورؤاه تجاه الدنيا، ونجده استعان برمزية الحيوان لأداء هذه الأفكار، ووظفه توظيفا دقيقًا في قوله:

خَبَـــت نارُ نَفسي بِاشتِعالِ مَفارِقي ... وَأَظلَمَ لَيلي إِذ أَضاءَ شِهابُـــها
أَيـــا بومَةً قَد عَشَّشَت فَوقَ هامَتي ... عَلى الرُغمِ مِنّي حينَ طارَ غُرابُها
رَأَيـــتِ خَرابَ العُمرِ مِنّي فَزُرتِني ... وَمَأواكِ مِن كُلِّ الدِيارِ خَرابُـــها
أَأَنعَمُ عَيشًا بَعدَ ما حَلَّ عارِضي ... طَلائِعُ شَيبٍ لَيسَ يُغني خِضابُها؟
وعِزَّةُ عمْـــــرِ المرءِ قبل مشيبهِ ... وقد فنيتْ نفسٌ، تولّى شبابُـــها
إِذا اصفَرَّ لَونُ المَرءِ وَابيَضَّ شَعرُهُ ... تَنَغَّصَ مِن أَيّامِهِ مُستَطابُـــها
فَدَع عَنكَ سَـــوآتِ الأُمورِ فَإِنَّها ... حَرامٌ عَلى نَفسِ التَقيِّ اِرتِكابُها[1]

لقد بنى الشافعي أبياته السابقة على الاستعارة، وهي من الفنون البلاغية والأسلوبية التي تتكر كثيرًا في شعره، "فمن يقرأ ديوان الشافعي، يرى أنه اتخذ في كثير من قصائده، الصور التشبيهية والاستعارية، قالبًا فنيًا، يرصد من خلالها عديدًا من القيم الإنسانية والمشاعر النفسية"[2]. ونجد هنا أن الاستعارة استطاعت أن ترسم لوحة حيّة نابضة بالحياة، وذلك من خلال اتّكائه على رمزيتي البومة والغراب، فالبومة بلونها الأبيض والتي لا تسكن إلا في الخراب، استقرت على رأسه وسكنت، وهذا بعد أن رحل الغراب الأسود، فرمز بالغراب إلى سواد الشعر، وبالبومة إلى بياضه، لذلك فالتقاء البومة مع الغراب في نفس المكان هو التقاء مستحيل، فهو التقاء الشيب مع الشباب.

ولعل الشافعي –باستعاراته تلك– تأثر بالقرآن الكريم في قوله تعالى: "قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا"[3]. وما تأثره بالاستعارات الواردة في القرآن الكريم إلا لعلمه بأنّ الاستعارة في القرآن الكريم تعد من أعلى مراتب الفصاحة[4].

والشافعي حينما يتحسر على الشباب ويندب الشيب ليس من أجل الحرص على الدنيا، وأن الشباب هو المعين على تحقيق ملذاتها، ولكنه يبكيه بوصفه نذيرًا بدنو الأجل واقتراب الموت.

---

[1] المصدر السابق، ص26–27.

[2] الفيومي، سعيد، الصورة في شعر الإمام الشافعي، مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث والدراسات، العدد السابع، نيسان 2006م، ص255.

[3] سورة مريم: 4.

[4] انظر، الجرجاني، عبد القاهر (ت 471هـ)، دلائل الإعجاز، قرأه وعلّق عليه محمود محمد شاكر، ط3، مطبعة المدني، ودار المدني بالسعودية 1993م، ص402.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والإبتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2022

ويكثر الشافعي من توظيف الطير في شعره، ودائما ما يتخذ منه رمزية أو مثلًا يستند عليه في تأكيد أفكاره. ومن ذلك قوله:

حَسبي بِعِلمي إِن نَفَع ما الذُلُّ إِلّا في الطَمَعْ
مَن راقَبَ اللَهَ رَجَع عن سوءِ ما كان صنَعْ
ما طارَ طَيرٌ وَارتَفَع إلا كَما طارَ وَقَعْ[1]

ففكرة الشافعي أنّ لكل شيء نهاية، وأنّ الإنسان مهما بلغ من أمره، لا بد من عودة إلى أصله، وهو كالطير الذي مهما طال تحليقه في السماء، ومهما علا، لا بد من عودة حتمية إلى الأرض. وقد ضمّن أبياته المثل العربي المعروف: "ما طارَ طَيرٌ وَارتَفَع إلا كَما طارَ وَقَعْ"، فتوظيف المثل هنا أعطى للأبيات مصداقية أكبر، وقيمة أعلى. فالمثل السائر كثير في الشعر والنثر عند العرب، وأحكمه أصدقه[2]. فتضمين المثل يعطي مصداقية أكبر للفكرة المطروحة.

ويقول كذلك:

إِنَّ الغَريبَ لَهُ مَخافَةُ سارِقٍ وَخُضوعُ مَديونٍ وَذِلَّةُ وَامِقِ
فَإِذا تَذَكَّرَ أَهلَهُ وَبِـــــلادَهُ فَفُؤادُهُ كَجَناحِ طَيرٍ خافِقِ[3]

يبين الشافعي في هذه الأبيات حال الإنسان في الغربة، وأنّ قلبه يطير بتذكر أهله، كالطير الذي يطير ويخفق بجناحيه. وقد أحسن في تشبيهه قلب المغترب بجناح الطير. ومن الملاحظ أن الشافعي يعتمد في تشبيهاته على طرح أمثلة من الواقع، ليكون قريبًا من ذهن المتلقي[4]. وهذا ما جعل في شعره سهولة وقبولًا ودقة في التصوير وإصابة في الوصف.

ويقول كذلك:

صديقُكَ مَنْ يُعادِي مَن تُعادِي بطُولِ الدَّهرِ ما سَجَعَ الحَمَامُ[5]

يؤكد الشافعي قيمة الصداقة وأهمية ديمومتها، ويربطها بشيء من صفات طائر الحمام، وهي كثرة السجع، وقد وفّق في اختياره لهذه الرمزية، للدلالة على الاستمرارية. ولعل هذا ما يؤكده زعم بعض العرب في أنّ طائر الحمام كان قد قُتل فرخه على عهد سيدنا نوح –عليه السلام– وما زال الحمام يبكي منذ ذلك الزمن[6]. فطائر الحمام بقي محافظا على الود والحنين، وكذلك يجب أن يكون الصديق.

والشافعي المعروف بعزته ووقاره، يشير إلى قضية مهمة جدًا وهي حاجة الإنسان الشريف للإنسان الدنيء، عندما تتقلب الأحوال وتتبدل، ويرى أنها من أصعب أمور الحياة، ولا يستطيع الإنسان العادي تحملها. فيلجأ إلى

---

[1] الشافعي، الديوان، ص79–80.

[2] انظر، القيرواني، ابن رشيق (ت 456هـ)، العُمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق عبد الحميد هنداوي، ط1، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، لبنان، 2001م، جـ1، ص247.

[3] الشافعي، الديوان، ص86.

[4] انظر: عبيد، منال محمد، شعر الإمام الشافعي، دراسة فنية تحليلية، ص80.

[5] الشافعي، الديوان، ص107.

[6] انظر، الدينوري، ابن قتيبة (ت 276هـ)، أدب الكاتب، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط4، مطبعة السعادة بمصر، 1963م، ص160.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والإبتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2022

توظيف رمزية الحيوان في تصويرها، فهي أصعب من قيادة القِرد أو رعايته، وأكل الضّبِ الذي تشمئز بعض النفوس من أكله، وصيد الدب وهو أمر شبه مستحيل من إنسان ذاك الزمان، فيقول:

لقَلعُ ضِرسٍ، وَضَربُ حَبسِ          وَنَزعُ نَفسٍ وَرَدُّ أَمــــــسِ
وَقَـــرُّ بَــردٍ وَقَـــــودُ قِــردِ          وَدَبـغُ جِلدٍ بِغَيرِ شَمـــسِ
وَأَكــلُ ضَــبٍّ وَصَـيدُ دُبٍّ          وَصَرفُ حَبٍّ بِأَرضِ خَرسِ
وَنَفخُ نــارٍ وَحَمــلُ عــارٍ          وَبَيـعُ دارٍ بِرُبعِ فِلــــسِ
وَبَيــعُ خُــفٍّ وَعَـدمُ إِلـفٍ          وَضَرْبُ إِلفٍ بِحَبلِ قَلسِ
أَهوَنُ مِن وَقـفَـةِ الـــحُرِّ          يَرجو نَوالًا بِبابِ نَحسِ[1]

وهذا ما نجده في قول الأعرابية حينما سئلت عن الجرح الذي لا يندمل فقالت: حاجة الكريم إلى اللئيم ثم يرده. قيل لها فما الذل؟ قالت: وقوف الشريف بباب الدنيء لا يؤذن له. قيل لها: فما الشرف؟ قالت: اعتقاد المن في رقاب الرجال[2].

ومما يميز هذه الأبيات هو حسن اختيار الحيوانات من قبل الشافعي، إذ كان لكل منها رمزيته المعهودة في حياة الناس، فهو يطرح أمثلةً واقعية يسير فيها وفق سنن العرب وتقاليدهم في التشبيه في أشعارهم، فكانت تشبيهاتهم مما أحاطت بها معارفهم، وأدركوه عيانًا[3]، وهذا ما نجده في الأبيات السابقة. فكثرة حركة القرد وصعوبة طباعة معروفة، وكذلك عزوف بعض البشر عن أكل لحم الضب، وصعوبة صيد حيوان الدبّ، وغيرها من صعوبات أوردها الشافعي لكي يبين أن هنالك أمر أكثر صعوبة من جميع ما ذكر؛ وهو وقفة الحر بباب النحس. وكأنه بتوظيفه لتلك الحيوانات يقدم أدلة واقعية يكاد يتفق عليها جلّ البشر.

ويكثر الشافعي من توظيف الحيوانات في حِكَمِه، وكذلك في أوامره ونواهيه، التي يستمدها من تعاليم الدين الإسلامي. "ولعل الحكمة الدينية المستمدة من القرآن الكريم، ومن أحاديث رسولنا –صلى الله عليه وسلم– هي العنوان الأشمل لأغلب ما أبدعه الشافعي"[4]. فنراه يحسن من توظيف الأفعى بأوصافها وأسمائها المختلفة في غير موضع من شعره، ومنه قوله:

احفَظ لِسانَكَ أَيُّها الإِنســــانُ          لا يَلدَغَنَّكَ إِنَّهُ ثُعبـــــانُ
كَم في المَقابِرِ مِن قَتيلِ لِسانِهِ          كانَت تَهابُ لِقاءَهُ الأَقرانُ[5]

ينطلق الشافعي في البيتين السابقين من منطلق إسلامي خالص، وهو الدعوة إلى ضرورة حفظ اللسان، فالأمر بحفظ اللسان أمر ديني، واستطاع الشافعي أن يقدم هذا الأمر من خلال تشبيه اللسان بالأفعى، وذلك لإقامة

---

(1) الشافعي، الديوان، ص66-67.

(2) انظر، الدينوري، أبا بكر (ت 333هـ)، المجالسة وجواهر العلم، خرّج أحاديثه وآثاره ووثق نصوصه وعلق عليه أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، ط1، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، جـ2، ص378.

(3) انظر، ابن طباطبا العلوي، محمد أحمد (ت 322هـ)، عيار الشعر، شرح وتحقيق عباس عبد الساتر، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2005م، ص16.

(4) أبو بشير، بسام علي، الحكمة في شعر الإمام الشافعي، دراسة فنية، مؤتمر الإمام الشافعي، جامعة الأقصى غزة، 2012م، ص1010.

(5) الشافعي، الديوان، ص114.

رابط مشترك بينها، وهذا الرابط في قوله (لا يلدغنّك) فأثر اللسان حينما يتلفظ بكلام سيء كأثر لدغة الثعبان، وفي هذا إشارة إلى الأثر الذي يتركه الكلام وهو شبيه بأثر السم الذي تنفثه الأفعى في الجسم.

ويقول الشافعي في معرض حكمه أيضًا:

تاهَ الأُعَيرِجُ وَاستَعلى بِهِ الخَطَرُ فَقُل لَهُ: خَيرُ ما استَعمَلتَهُ الحَذَرُ

أَحسَنتَ ظَنَّكَ بِالأَيّامِ إِذ حَسُنَت وَلَم تَخَف سوءَ ما يَأتي بِهِ القَدَرُ

وَسالَمَتكَ اللَيالي فَاغتَرَرتَ بِها وَعِندَ صَفوِ اللَيالي يَحدُثُ الكَدَرُ[1]

والأعيرج حية صماء كالأفعى لا تقبل الرّقى[2]، وهي هنا رمزية للإنسان المتعالي المتكبر المتخايل، الذي لا يتبصر الأمور بسبب تعاليه وتجبره، فهو لم يفهم الدنيا على حقيقتها، ولا يدرك أن صفوها غير دائم، فسرعان ما يأتي الكدر وتنقلب الأحوال.

ويلجأ الشافعي إلى توظيف رمزية الأفعى للدلالة على الشاعر المُجيد المعروف بمنطقه وبلاغته، فيقول:

وَالشاعِرُ المِنطيقُ أَسوَدُ سالِخٌ وَالشِعرُ مِنهُ لُعابُهُ وَمُجاجُهُ

وَعَداوَةُ الشُعَراءِ داءٌ مُعـــضِلٌ وَلَقَد يَهونُ عَلى الكَريمِ عِلاجُهُ[3]

فالشاعر صاحب المنطق والبلاغة والقول الحسن، كالثعبان الأسود الذي يجدد ثوبه وينسلخ منه، دلالة على الابتداع وابتكار المعاني وحسن توالدها، وهو بذلك كالأفعى التي تجدد ثوبها كل حين. وكذلك فإن الشاعر ينفث سمه كالأفعى التي تنفث السم، دلالة على الأثر الذي يتركه الشعر، فلذلك تصعب عداوة الشعراء لسمية كلامهم.

وهو كذلك يشير إلى قضية مهمة في الأدب العربي، وهي خوف الناس من ألسنة الشعراء، وتجنبهم حتى لا يذكرونهم بسوء، فتُذاع أخبارهم السيئة بين الناس. فتشبيه ألسنة الشعراء بلسان الأفعى وارد في الأدب العربي، ومن ذلك الخبر الذي أورد عن الحُطيئة حين سُئل: "يا أبا مُليكة من أشعر الناس؟ فأخرج لسانه كأنه لسان الحيّة ثم قال: هذا إذا طمع"[4]. فراوي هذا الخبر شبّه لسان الحُطيئة بلسان الحية لما عرف عن الحطيئة من كثرة هجائه وتعرضه للناس.

وأيضًا يكثر الشافعي من توظيف الحيوان في حكمه المستمدة من تعاليم الدين الإسلامي؛ فيقول:

رُكوبُكَ النَعشَ يُنسيكَ الرُكوبَ عَلى ما كُنتَ تَركَبُ مِن بَغلٍ وَمِن فَرَسِ[5]

يحاول الشافعي بيان هول الموت وصعوبته، التي تُنسي الإنسان كل نعيم كان قد مر به، وذلك من خلال مقارنته لركوب النعش بركوب الدواب في الحياة، وشتان ما بين الاثنين. وإن استحضاره لركوب البغل والفرس يحمل دلالات التنعم في الدنيا، ورغد العيش، الذي يزول وينتهي عند الموت.

---

[1] الشافعي، الديوان، ص57.

[2] انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة: عرج.

[3] الشافعي، الديوان، ص40.

[4] الأصفهاني، أبو الفرج، الأغاني، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1928م، جـ2، ص170.

[5] الشافعي، الديوان، ص68.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والإبتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2022

## خاتمة

حاول هذا البحث الوقوف على ظاهرة بارزة في شعر الإمام الشافعي، وهي ظاهرة توظيف الحيوان في شعره. إذ كانت ظاهرة بارزة تستحق الدراسة لما تكشف عنها من رمزيات ودلالات حملتها، وكان لها دور واضح في التعبير عن مواقف الشافعي تجاه بعض القضايا، وكذلك حملت شيئًا من فكره ومعتقداته، وكذلك ضمّنها بعض حِكَمِه المعروفة. فلم يكن حضور الحيوان عند الشافعي مجرد حضور عابر بلا قيمة، بل كان لكل منها قيمته ودوره المهم في بناء النص الشعري.

وقد قام البحث بدراسة الشواهد الشعرية التي وظّف فيها الحيوان، ومحاولة تحليلها والوقوف على رمزية الحيوان فيها، وكشف بعض جمالياتها. وقد خرج البحث بمجموعة من النتائج، لعل من أبرزها:

- ورد الحيوان في شعر الإمام الشافعي بشكل لافت، وتكررت مجموعة كبيرة من الحيوانات وتنوعت في شعره. وكانت ترد إما بلفظ عام يدل على فصيلة معينة منها كما في لفظة السّباع والطّيور، أو بذكر بعض صفاتها كما في وصف الأفعى، أو بذكر اسمها المتعارف عليه في أدبنا. وقد وردت على النحو التالي: وردت السّباع من أسود وذئاب وكلاب وغيرها في عشرين موضعا من شعره، كما وردت الطيور باختلاف أنواعها وأسمائها في ستة مواضع، ووردت أنواع متنوعة من الزواحف في أربعة مواضع، ووردت البغال والحمير والخيل في أربعة مواضع، ووردت الأغنام في موضعين، ووردت القرود والذباب في موضع واحد لكلٍّ منها. ولقد كان لكل حيوان منها دور بارز وقيمة كبيرة ودلالة معينة.
- جاء توظيف الحيوان حاملًا أفكار الشاعر ومعينًا له في ذلك؛ فقد استعان به لكي يبين الحجج والبراهين تصديقًا لما يطرح من أفكار. لذلك استطاعت رمزية الحيوان أن تؤدي دورًا مهمًا في التعبير عن أفكاره.
- جاءت رمزية الحيوان متوافقة مع عقيدة الشافعي، وكانت هذه الرمزية تنبع من فكر إسلامي خالص، مستمدة من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة. وهذا ظاهر من خلال اقتباسه لكثير من آيات الذكر الحكيم والأحاديث النبوية الشريفة.
- استعان الشافعي كثيرًا بالأمثال العربية، والحكم المأثورة، والتي كانت متوافقة وما يريد من طرح أفكار. وهذه الاستعانة منحت شعره بعدًا فنيًا، وواقعية أكبر.كان توظيف الحيوان خير معين للشاعر في طرح حِكَمه التي عرف بها، وقد اعتمد في ذلك على ما استقر في ذهن المتلقي من رمزيات ودلالات لبعض الحيوانات، وربطها بحال البشر في الحياة.
- شكّل توظيف الحيوان صدمة للمتلقي وكسرًا لأفق توقّعه –في بعض مواضعه–، ومن ذلك حينما بيّن أن بعض الحيوانات المعروفة بقوتها وتفوقها، لم تسعفها قوتها في الحصول على رزق يتناسب مع هذه القوة، في الوقت الذي حصّلت حيوانات أخرى ممن هي أضعف منها وأقل قوة على أكثر مما كان متوقع أن تحصل عليه.
- ظهر المزج بين التشكيل الفني والأسلوبي وقضية توظيف الحيوان جليًا في شعر الشافعي؛ فقد ظهر التضاد والكناية والاستعارة والتشبيه والصور الفنية، وغيرها من ملامح أسلوبية وفنية كان لها الدور الكبير في إيضاح الفكرة وإبرازها، ولم تكن مجرد حلية أو زينة لغوية أو لفظية فحسب.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والإبتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2022

- اعتمد الشافعي كثيرًا على عقد مقارنات بين الحيوانات وما تحمل من رمزيات، كمقارناته بين الأسد والكلب، وكذلك بين الأسد والحمار، وكذلك بين العُقاب والذباب. وأيضًا مقارناته الكثيرة بين بعض صنوف البشر وبعض الحيوانات؛ بحيث تكون الفكرة المقصودة هي ما يتشكل في ذهن المتلقي من نتائج هذه المقارنات.
- يميل الشافعي إلى استخدام المنطق في إقناع المتلقي؛ إذ يضرب أمثلة واقعية من حياة بعض الحيوانات وطبائعها المعروفة. وهذا بدوره يزيد النص الشعري قيمة وجمالًا، إذ يخاطب عقل المتلقي وفكره، وعندها يصل إلى إقناعه، وحينها لا يملك المتلقي إلا التسليم بالفكرة المطروحة وقبولها.

وهذه جملة من النتائج التي كشفها البحث. ويبقى شعر الإمام الشافعي قابلًا للدراسة وتعدد القراءات، فهذه دراسة من مجموع الدراسات الكثيرة التي دارت حول شعره. وكذلك هي دراسة من ضمن الدراسات التي ركّزت على قضية معينة أو ظاهرة بارزة أو ملمح فني في شعره.

والله ولي التوفيق.

## المصادر والمراجع


- القرآن الكريم.
- إبراهيم، نوال مصطفى، المتوقع واللّامتوقع في شعر المتنبي، مقاربة نصية في ضوء نظرية التلقي والتأويل، ط1، دار جرير، عمّان، الأردن، 2008.
- الأصفهاني، أبو الفرج، الأغاني، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1928م.
- أبو بشير، بسام علي، الحكمة في شعر الإمام الشافعي، دراسة فنية، مؤتمر الإمام الشافعي، جامعة الأقصى غزة، 2012م.
- البيهقي، الحافظ أبو بكر (ت 458هـ)، مناقب الإمام الشافعي، تحقيق أحمد صقر، ط1، دار التراث، القاهرة، 1971م.
- الجاحظ، عمرو بن بحر (ت 255هـ)، الحيوان، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، ط2، مطبعة البابي الحلبي بمصر، 1965م.
- الجرجاني، عبد القاهر (ت 471هـ)، دلائل الإعجاز، قرأه وعلّق عليه محمود محمد شاكر، ط3، مطبعة المدني، ودار المدني بالسعودية، 1993م.
- الحموي، ياقوت (ت 626هـ)، معجم الأدباء، ط3، دار الفكر، 1980م.
- الدفاع، علي، إسهام العلماء العرب في عالم الحيوان، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط1/ 1986م.
- الدميري، كمال الدين محمد بن موسى (ت 808هـ)، حياة الحيوان الكبرى، تحقيق إبراهيم صالح، ط1، دار البشاير.
- الدينوري، أبو بكر (ت 333هـ)، المجالسة وجواهر العلم، خرّج أحاديثه وآثاره ووثق نصوصه وعلق عليه أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن حزم، بيروت، لبنان.
- الدينوري، ابن قتيبة (ت 276هـ)، أدب الكاتب، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط4، مطبعة السعادة بمصر، 1963م.


© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والإبتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2022 

- ربابعة، موسى، جماليات الأسلوب والتلقي، دار جرير للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، 2008م.
- سقال، ديزيريه، العرب في العصر الجاهلي، ط1، دار الصداقة العربية، بيروت، 1995م.
- الشافعي، ديوان الإمام الشافعي، اعتنى به عبد الرحمن المصطاوي، ط3، دار المعرفة، بيروت، لبنان، 2005م.
- ابن طباطبا العلوي، محمد أحمد (ت 322هـ)، عيار الشعر، شرح وتحقيق عباس عبد الساتر، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2005م.
- عبيد، منال محمد، شعر الإمام الشافعي، دراسة فنية تحليلية، رسالة ماجستير، جامعة الأقصى غزة، 2017م.
- العمايرة، حنان، ورغدة الزبون، توظيف الحيوان في شعر محمود درويش ديوان "سرير الغريبة" أنموذجًا تحليليًا، دراسات، العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد 44، العدد 1، 2017م.
- عوض، جازية، الحيوان في شعر كعب بن زهير، دراسة فنية موضوعية، رسالة ماجستير، جامعة القدس، فلسطين، 2012م.
- ابن غيام، فهد حسن، الجملة الطلبية في شعر الشافعي (دراسة تركيبية دلالية)، رسالة ماجستير، جامعة الشرق الأوسط، الأردن، 2014م.
- فريحات، مريم، صورة الأسد في شعر أبي زبيد الطائي، مجلة قراءات للبحوث والدراسات الأدبية والنقدية واللغوية، عدد 3، 2013م.
- الفيومي، سعيد، الصورة في شعر الإمام الشافعي، مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث والدراسات، العدد السابع، نيسان 2006م.
- القيرواني، ابن رشيق (ت 456هـ)، العُمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق عبد الحميد هنداوي، ط1، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، لبنان، 2001م.
- كوهن، جان، اللغة العليا، النظرية الشعرية، ترجمة أحمد درويش، ط2، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 1999م.
- ابن منظور، جمال الدين الأنصاري (ت 711هـ)، لسان العرب، ط4، دار صادر، بيروت، 2005م.
- الميداني، أبو الفضل أحمد بن يحيى (ت 518هـ)، مجمع الأمثال، حققه وفصله وضبط غرائبه وعلّق حواشيه محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السنة المحمدية، 1955م.
- ابن النديم (ت 389هـ)، الفهرست، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1978م.
- الهليل، عبد الرحمن، التكرار في شعر الخنساء، دراسة فنية، ط1، دار المؤيد، الرياض، السعودية، 1999م.


© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والإبتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2022